النص الكامل





لُغز وادي بوسْكومْب

بالرسومات الأصلية





بسم الله الرحمن الرحيم



مغامرات

شيرلوك هولمز

(٤)

لُغز وادي بوسْكومْب

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩١

تأليف: آرثر كونان دويل

ترجمة: سالي أحمد حمدي

تحرير: رمزي رامز حسّون



الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُويِر (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلَصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسلة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

لُغز وادي بوسْكومْب

كنت جالساً مع زوجتي على مائدة الإفطار في صباح أحد الأيام عندما دخلت الخادمة وفي يدها برقية من شيرلوك هولمز هذا نصها: «هل تستطيع أن تتفرغ لمدة يومين؟ لقد وصلتني الآن برقية من غرب إنكلترا بخصوص مأساة وادي بوسكومب، وسوف أكون سعيداً إذا رافقتني. الهواء هناك نقي والمناظر رائعة. سأغادر من محطة بادنغتون في قطار الحادية عشرة والربع».

نظرت زوجتي إليّ وقالت: ما رأيك يا عزيزي؟ هل ستذهب؟

- لا أدري حقاً ماذا أقول، فلديّ قائمة طويلة من المرضى في الوقت الحالي.

- آه، سينوب عنك زميلك آنستروثر في العمل. يبدو عليك الشحوب مؤخراً، وأعتقد أن هذا التغيير سيفيدك، كما أن قضايا السيد شيرلوك هولمز تثير اهتمامك دائماً.

فأجبتها قائلاً: إذا كنت سأذهب فيجب عليّ أن أحزم أمتعتي على الفور، فليس أمامي إلا نصف ساعة فقط.

كان لخبرتي بحياة المعسكرات في أفغانستان أثر جليّ في حياتي، فقد جعلتني -على الأقل- مسافراً متأهباً على الدوام حيث كانت حاجاتي قليلة وبسيطة. وهكذا انطلقت بعد أقل من نصف الوقت المذكور ومعي حقيبتي في عربة أجرة تتجه إلى محطة قطار بادنغتون.

كان شيرلوك هولمز يقطع رصيف المحطة ذهاباً وإياباً وقد بدا قوامه النحيف الطويل أكثر طولاً ونحافة في معطف سفره الرمادي الفضفاض الطويل وقبعته الضيّقة المصنوعة من القماش.

قال لي حينما رآني: أنا ممتنّ حقاً لحضورك يا واطسون، فمن الأهمية بمكان بالنسبة لي أن أجد معي شخصاً أستطيع الاعتماد عليه تماماً، فالمساعدون المحليون عادة ما يكونون إما عديمي الفائدة أو غير محايدين. احجز لنا مقعدَي الركن بينما أُحضر أنا التذاكر.

لم يكن في عربة القطار سوانا نحن الاثنين وعدد هائل من الصحف التي أحضرها هولمز معه وانغمس في قراءتها وفحصها بدقة، تتخلل ذلك لحظات من التأمل وكتابة الملاحظات، حتى تجاوزنا بلدة ريدنغ، وعندئذ قام بلفّ الصحف كلها حتى صارت في شكل كرة ضخمة ثم رمى بها على الرفّ.

سألني قائلاً: هل سمعت شيئاً عن القضية؟

- ولا كلمة واحدة، فأنا لم أقرأ أيّ صحيفة منذ أيام.

- صحف لندن لم تقدّم تغطية كاملة للقضية، فقد قرأت الآن كل الصحف التي صدرت حديثاً



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

حتى أتمكن من دراسة التفصيلات، ويبدو مما فهمته أنها واحدة من تلك القضايا البسيطة التي تكون غاية في الصعوبة.

- يبدو كلامك متناقضاً قليلاً.

- ولكنه دقيق إلى أقصى حد؛ فكلما كانت الجريمة عادية وبلا معالم مميزة ازدادت صعوبة حلها. وقد حشدوا في هذه القضية أدلّة قوية ضد ابن القتيل.

- إنها جريمة قتل إذن؟

- حسناً، يغلب على الظن أنها كذلك، ولكنني لن آخذ شيئاً على أنه أمر مسلَّم به حتى تُتاح لي الفرصة شخصياً لدراسة القضية. سأشرح لك الأمر في كلمات قليلة حسبما فهمته.

إن وادي بوسكومب مقاطعة ريفية في هَيَرْفوردْشاير لا تبعد عن روس كثيراً، والسيد جون تيرنر هو أكبر مالك للأراضي في تلك الناحية، وقد كوّن ثروته في أستراليا ثم عاد إلى بلده الأصلي منذ عدة سنوات. وقد تم تأجير إحدى المزارع التي يملكها، وهي مزرعة هاثرلي، إلى السيد تشارلز مكارثي الذي كان يقيم أيضاً في أستراليا فيما مضى. وقد عرف كل من الرجلين الآخر هناك في المستعمرات، ولذلك

لم يكن من غير الطبيعي عند استقرارهما أن يختارا الإقامة متقاربين قدر المستطاع.

وقد كان من الواضح أن تيرنر هو الأغنى، ولذلك أصبح مكارثي مستأجراً عنده، وإن بقيت بينهما علاقة الأنداد على ما يبدو، وكانا يقضيان معاً الكثير من الوقت. وكان لمكارثي ابن واحد وهو صبي في الثامنة عشرة من عمره، ولتيرنر ابنة وحيدة في العمر نفسه، ولم تكن زوجة أي منهما على قيد الحياة. ويبدو أنهما قد تجنبا الاختلاط بالجيران من العائلات الإنكليزية وعاشا حياة منعزلة، بالرغم من أن مكارثي وابنه كانا مولعين بممارسة الرياضة، وقد شوهدا مراراً في السباقات التي تقام في الجوار. وعدد الأفراد الذين يقيمون في منزل تيرنر كبير، فهم لا يقلون عن ستة أشخاص كما يبدو.

هذه هي المعلومات التي تمكنت من جمعها عن العائلتين، والآن لننظر إلى الوقائع: في الثالث من شهر حزيران (يونيو) الذي يوافق يوم الإثنين الماضي غادر مكارثي منزله في هاثرلي في نحو الساعة الثالثة من بعد الظهر وذهب ماشياً إلى بحيرة بوسكومب، وهي بحيرة صغيرة تكوّنت نتيجة لاتساع النهر الذي يجري في وادي بوسكومب. وقد كان مكارثي صباح ذلك اليوم مع خادمه في روس، وأخبره بأن عليه أن يسرع

لأنه مرتبط بموعد مهم في الساعة الثالثة، وهو الموعد الذي لم يرجع منه حياً.

تبعد بحيرة بوسكومب عن منزل مزرعة هاثرلي ربع ميل، وقد رآه شخصان وهو يمرّ عبر هذا الطريق، كان أحدهما امرأة عجوزاً لم يُذكر اسمها، أما الآخر فكان ويليم كراودر، وهو حارس يعمل عند السيد تيرنر. وقد شهد الاثنان بأن السيد مكارثي كان يسير وحيداً، كما قرّر الحارس قائلاً إنه شاهد السيد مكارثي يسير في ذلك الطريق وبعدها بدقائق شاهد ابنه السيد جيمس مكارثي يسير في نفس الطريق وهو يحمل بندقية تحت ذراعه، وأغلب ظنه أن الأب كان يسير على مرمى البصر في ذلك الوقت والابن يتبعه، ولكنه لم يعطِ للأمر أهمية حتى سمع في المساء بالمأساة التي وقعت.

وقد شاهد شخص آخر مكارثي وابنَه بعد آخر مرة رآهما فيها الحارس كراودر، وكان هذا الشخص هو بيشنس موران، ابنة حارس منتجع وادي بوسكومب، وهي فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، وكانت تتمشى بين الأشجار الكثيفة التي تحيط بالبحيرة وتقطف الأزهار. وقد قالت الفتاة إنها رأت السيد مكارثي وابنه عند أطراف الغابة بالقرب من البحيرة عندما كانت هناك، وقد بدا واضحاً أنهما

يتشاجران بعنف، وقد سمعت السيد مكارثي الأب يوجه إلى ابنه كلمات شديدة القسوة، ورأت الابن وهو يرفع يده إلى الأعلى وكأنه سوف يضرب أباه، فانتابها الرعب من هذا العنف حتى إنها جرت هاربة، ثم أخبرت أمها عند وصولها إلى المنزل أنها رأت السيد مكارثي وابنه يتشاجران بالقرب من بحيرة بوسكومب وأنها تخشى أن يتعاركا.

ولم تكد تقول هذه الكلمات حتى جاء السيد مكارثي الابن يجري باتجاه كوخ الحارس ليقول إنه وجد أباه ميتاً في الغابة وليطلب مساعدة الحارس. كان في حالة من الهياج الشديد وليس معه بندقيته ولا قبعته، وقد لوحظ أن يده اليمنى وكمّه كانا ملوَّثين بدم حديث. وحين لحقوا به وجدوا الجثة ممدَّدة على العشب بجوار البحيرة، وكانت جمجمة القتيل قد تهشّمت بضربات متكررة بسلاح ثقيل غير حادّ. ومن الممكن لمثل تلك الجروح أن تكون قد سبّبتها مؤخرة بندقية الابن التي عُثر عليها ملقاة فوق العشب على بُعد خطوات من الجثة. وقد تم القبض على الشاب فوراً بسبب هذه الملابسات، ثم وُجِّه إليه اتهام بالقتل العمد في التحقيق الذي أُجري يوم الثلاثاء، وعُرض يوم الأربعاء على المحلّفين في روس، لكنهم أجّلوا البتّ في القضية إلى الجلسة التالية.

هذه هي الوقائع الرئيسية في القضية كما تمّ عرضها على الشرطة وعلى قاضي الوفيات.

* * *



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

بعد أن أنهى هولمز كلامه قلت معلّقاً: لا يمكنني تصوّر قضية أكثر بشاعة من هذه القضية، والأدلة الظرفية هنا تشير إلى المجرم كما لم يحدث في قضية من قبل.

فأجاب هولمز وهو غارق في تفكير عميق: إن الأدلة الظرفية أمر خادع؛ فقد يبدو أنها تشير إلى جهة ما، ولكن إذا قمت بتغيير وجهة نظرك قليلاً فقد تجد أنها تشير بنفس القوة إلى جهة مغايرة تماماً. وإن كان من الواجب -على أية حال- الاعتراف بأن الأدلة ضد الشاب قوية جداً ومن الممكن أن يكون هو الجاني حقاً، رغم أن عدداً كبيراً من الجيران، ومنهم الآنسة تيرنر ابنة مالك الأرض المجاورة، يظنون أنه بريء؛ حتى إنهم وكّلوا المحامي ليستراد ليدافع عن الابن في هذه القضية، وقد شعر ليستراد بالحيرة فأحال القضية إليّ، ولهذا السبب ينطلق سيدان مثلنا في منتصف العمر باتجاه الغرب بسرعة خمسين ميلاً في الساعة بدلاً من أن يركَنا إلى الراحة في المنزل!

قلت: أخشى أن الوقائع واضحة جداً بحيث لن يكون لك فضل كبير في حل هذه القضية.

فأجاب ضاحكاً: ليس هناك ما هو أكثر خداعاً من الحقيقة الواضحة، وبالإضافة إلى ذلك فقد نصادف بعض الحقائق الأخرى الواضحة التي لم تكن ظاهرة

للسيد ليستراد. وأنت تعرفني بما فيه الكفاية لتعرف أنني لا أتفاخر حين أقول إنني سوف أقوم بدحض نظريته أو إثباتها بطرق لا يستطيع هو استخدامها أو حتى فهمها. لنأخذ مثالاً قريباً على ذلك، فأنا أتخيل بوضوح أن نافذة حمّامك تقع على يمينك وأنت قائم أمام مرآة حوض المغسلة، ولكنني أشكّ في أن السيد ليستراد كان يمكن أن يلاحظ مثل هذا الأمر البديهي.

- كيف بالله...؟!

- أنا أعرفك حق المعرفة يا صديقي العزيز، وأعرف ما تتميز به شخصيتك العسكرية من دقة وتنظيم صارم، فأنت تحلق ذقنك كل صباح، كما أنك في هذا الوقت من السنة تستعين بضوء الشمس عند الحلاقة. وبما أن حلاقتك تقلّ إتقاناً أكثر وأكثر كلما اتجهنا إلى الجانب الأيسر من ذقنك فمن الواضح إذن أن هذا الجانب كان معرَّضاً لإضاءة أقل من الآخر، فلا يمكنني تصوّر أن تنظر إلى نفسك في إضاءة جيدة وترضى بمثل هذه النتيجة مع ما أعرفه عنك من طباع. أقول هذا كمثال على دقة الملاحظة والاستنتاج، وهو مجال تخصصي، ومن المحتمل أن أخدم التحقيق الموجود أمامنا من هذا المنطلق، فهناك نقطة ثانوية أو نقطتان ظهرتا في التحقيق وتستحقان أن تؤخذا بعين الاعتبار.

- وما هما؟

- يبدو أن القبض على الابن لم يتم على الفور، بل تم بعد أن عاد إلى مزرعة هاثرلي. وعندما أخبره مفتش الشرطة أنه قيد الاعتقال علّق قائلاً بأن ذلك لا يثير دهشته وأن هذا هو ما يستحقه. وقد كان لهذه الملاحظة التي أبداها أثر كبير في إزالة أي شك في إدانته قد يكون في عقول هيئة المحلفين.

صحت قائلاً: لقد كان اعترافاً منه.

- لا، فقد أصرّ بعد ذلك على البراءة.

- ولكن بعد أن جاء هذا التعليق على رأس كل تلك الأحداث الشنيعة فلا بدّ أنه كان تعليقاً مثيراً للريبة الشديدة.

قال هولمز: على العكس، فهو -في الوقت الحالي- أكثر الفرجات التي أستطيع رؤيتها إشراقاً بين كل تلك الغيوم، فمهما كان بريئاً فليس من الممكن أن يكون غاية في البلاهة بحيث لا يستطيع أن يرى أن الملابسات كانت ضده بشكل خطير، فلو بدت عليه الدهشة عند القبض عليه أو حتى لو أظهر نقمته على ذلك لاعتبرت موقفه مثيراً للشك، لأن إظهار مثل هذه الدهشة وهذا الغضب لن يكون تصرفاً طبيعياً في ظل هذه الملابسات، وإن كان من الممكن أن يكون

أفضل سياسة يقوم بها رجل مخادع. أما تقبّله الواضح للموقف فيدلّ على واحد من أمرين؛ إما أنه رجل بريء، وإما أنه رجل يملك من ضبط النفس والصلابة القدر الكبير. أما بخصوص تعليقه عن أنه يستحق ذلك فلم يكن أيضاً غير عادي لو أخذت في الاعتبار أنه وقف بجوار جثة أبيه، ولا شك أنه قد نسي في ذلك اليوم بالذات واجب الابن تجاه أبيه وتبادل معه كلمات قاسية حتى إنه -طبقاً لكلام الفتاة الصغيرة التي كانت شهادتها غاية في الأهمية- قد رفع يده كما لو كان سيضربه! يبدو لي أن الشعور بالذنب والندم اللذين يظهران في عبارته يدلّان على عقل سليم وليس على عقل إجرامي.

هززت رأسي وعلّقت قائلاً: كم من الرجال شُنقوا بسبب أدلة أوهى من ذلك!

- بالفعل، كما شُنق العديد من الرجال ظلماً.

- وما هي أقوال الشاب عن الأمر؟

- أخشى أنها غير مُشجّعة لأنصاره، على أن هناك بعض الدلالات في نقطة أو اثنتين من أقواله. ستجد أقواله هنا، ويمكنك قراءتها بنفسك.

التقط من وسط حزمته نسخة من صحيفة هيرفوردشاير المحلية، وبعد أن قلب الصفحة أشار

إلى فقرة أدلى فيها الشاب التعس بأقواله بخصوص ما حدث، فجلست في ركن عربة القطار وقرأتها بعناية شديدة. وهذا هو نصّ المقال:

أدلى السيد جيمس مكارثي (وهو الابن الوحيد للقتيل) بشهادة قال فيها: كنت بعيداً عن المنزل في بريستول لمدة ثلاثة أيام، ولم أعُد إلا صباح يوم الإثنين الماضي الذي يوافق اليوم الثالث من الشهر. وقد كان والدي غائباً عن المنزل وقت وصولي وأخبرتني الخادمة أنه ذهب إلى روس مع الخادم جون كوب، وبعد عودتي بوقت قصير سمعت صوت عجلات عربة أبي في الفناء، وعندما نظرت من نافذتي رأيت أنه يسرع مغادراً الفناء، إلا أنني لم أدرك المكان الذي سوف يذهب إليه. وقد أخذت عندها بندقيتي ومشيت بهدوء باتجاه بحيرة بوسكومب وفي نيتي زيارة المكان المخصص لصيد الأرانب على الجانب الآخر، وفي طريقي رأيت الحارس ويليم كراودر (كما أفاد في شهادته)، ولكنه أخطأ حين ظن أنني كنت أتبع والدي، فلم أكن أعرف أنه أمامي. وعندما كنت على بُعد مئة متر من البحيرة سمعت صيحة «كوي»، وهي إشارة معتادة بيني وبين أبي، فأسرعت إلى الأمام ووجدته يقف بجوار البحيرة. وقد بدت عليه الدهشة حين رآني أمامه وسألني بقسوة

عمّا أفعله هناك، ودارت بيننا محادثة أدّت إلى جدل عنيف وكادت تصل إلى حد الضرب لأن والدي حاد الطباع، ولكنني حين رأيت أن انفعاله قد خرج عن السيطرة تركته وعدت باتجاه مزرعة هاثرلي. ولم أكن قد ابتعدت أكثر من مئة وخمسين متراً عندما سمعت من



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

ورائي صوت صيحة عالية بشعة، مما جعلني أعود ثانية، وعندها وجدت أبي يلفظ أنفاسه الأخيرة على الأرض وفي رأسه جروح رهيبة، فألقيت ببندقيتي وحملته بين ذراعَي، ولكنه مات على الفور، فركعت بجواره لعدة دقائق، ثم اتجهت إلى كوخ حارس منتجع السيد تيرنر (لأنه الأقرب) وطلبت مساعدته. لم أرَ أحداً بالقرب من أبي عندما عُدت ولا أعرف كيف أصيب بتلك الجروح، وبالرغم من أنه لم يكن محبوباً بسبب طباعه الباردة المنفّرة فإنه لم يكن له أعداء حسبما أعرف. ولا أعرف المزيد عن الأمر.

قاضي الوفيات: هل أدلى والدك بأي تصريح قبل أن يموت؟

الابن: لقد غمغم بكلمات قليلة، ولكنني لم أستطع أن أسمع إلا الإشارة إلى كلمة «رات».

القاضي: وماذا فهمت من ذلك؟

الابن: لم أفهم ما يعنيه ذلك، وقد ظننت أنه يهذي.

القاضي: وما هي المسألة التي تسببت في الشجار الأخير بينكما؟

الابن: أفضّل أن لا أجيب.

القاضي: أخشى أنني مضطر إلى الإصرار على سماع إجابتك.

الابن: يستحيل أن أخبرك، ولكنني أؤكد لك أن الأمر لا علاقة له على الإطلاق بالمأساة المحزنة التي تبعته.

القاضي: المحكمة هي التي تقرر ذلك، ولا حاجة لي أن ألفت نظرك إلى أن رفضك الإجابة سوف يضرّ بموقفك في القضية بشكل كبير في أيّ جلسات قضائية قد تُعقَد في المستقبل.

الابن: ما زلت أصرّ على الرفض.

القاضي: لقد فهمت من كلامك أن صيحة «كوي» كانت إشارة متعارفاً عليها بينك وبين أبيك.

الابن: لقد كانت كذلك.

القاضي: فكيف حدث إذن أنه أطلق تلك الصيحة قبل أن يراك وقبل أن يعرف أنك عدت من بريستول؟

قال الابن وقد بدت عليه الحيرة الشديدة: لا أعرف.

أحد المحلفين: ألم ترَ ما يثير الشك عندما عدت بعد أن سمعت الصيحة لتجد أبيك وقد أصيب إصابة قاتلة؟

الابن: لم أرَ شيئاً محدداً.

القاضي: ماذا تعني؟

الابن: لقد كنت في غاية الاضطراب والانفعال عندما اتجهت مسرعاً نحو الأرض المكشوفة أمام البحيرة، فلم أستطع التفكير بشيء غير والدي، وإن انتابني شعور غامض عندما كنت أجري إلى الأمام بوجود شيء على الأرض في الناحية اليسرى، وقد بدا لي أنه شيء رمادي اللون، ربما كان شالاً أو معطفاً من نوع ما... ولكنه كان قد اختفى حين تركت أبي ونهضت للبحث عنه.

- أتقصد أنه اختفى قبل أن تذهب طلباً للمساعدة؟

- نعم، كان قد اختفى.

- ألا تستطيع معرفة ما هو؟

- لا أعرف، ولكنني شعرت بوجود شيء هناك.

- كم كان يبعد عن الجثة؟

- نحو اثنَي عشر متراً تقريباً.

- وكم كان يبعد عن طرف الغابة؟

- نفس المسافة تقريباً.

- فإذا كان أحد قد أخذه فلا بد أن ذلك قد حدث في الوقت الذي كنتَ تبعد فيه عنه اثنَي عشر متراً.

- أجل، ولكنني كنت أدير له ظهري.

وبهذا انتهى استجواب الابن.

قلت وأنا أنظر إلى المقال: أرى أن القاضي كان قاسياً على مكارثي الشاب إلى حد ما في تعليقاته الختامية؛ فهو يلفت النظر (وهو محقّ) إلى التناقض في إطلاق والده صيحة إشارة له قبل أن يراه، وإلى رفض الشاب الإفصاح عن تفصيلات محادثته مع والده، بالإضافة إلى غرابة ما قاله عن كلام والده قبل موته مباشرة، ثم يقول القاضي إن كل هذه الأشياء تشكل دليلاً ضد الشاب بشكل كبير.

ضحك هولمز بصوت منخفض ومدّ جسمه على المقعد المنجَّد وقال: لقد بذلتَ جهدك أنتَ والقاضي في توضيح أقوى النقاط التي أراها في مصلحة الشاب. ألا ترى أنكما تقرّان بأنه صاحب مخيلة شديدة الخصوبة، ثم تنزعان عنه هذه الصفة بعد ذلك؟ فإذا كان لا يستطيع اختراع سبب لشجاره مع والده يكسب به تعاطف المحلفين فإن مخيّلته مُقفرة، وإذا استخرج من عقله الباطن شيئاً بمثل غرابة ذِكر القتيل كلمة «رات» قبل موته مباشرة بالإضافة إلى موضوع القماش

المختفي فمخيلته خصبة. لا يا صديقي، سوف أدرس هذه القضية وأنا أضع في اعتباري أن كلام الشاب صحيح، وسنرى إلى ماذا يقودنا هذا الأمر. حسناً، لن أزيد كلمة أخرى عن هذه القضية حتى نصل إلى موقع الجريمة، وسوف نتناول غداءنا في سويندن، وأظن أننا سوف نصل إليها في غضون عشرين دقيقة.

* * *

كانت الساعة تقترب من الرابعة عندما وصلنا أخيراً إلى مدينة روس الريفية الصغيرة الجميلة بعد مرورنا عبر وادي ستراود الأخّاذ وفوق نهر سيفرن الواسع اللامع.

وجدنا بانتظارنا على رصيف المحطة رجلاً نحيلاً متحفزاً يبدو عليه الخبث والمكر، ورغم معطفه الطويل الذي ارتداه مراعاة للبيئة الريفية المحيطة به إلا أنني لم أجد صعوبة في التعرف عليه. كان ذلك هو المفتش ليستراد من شرطة سكتلنديارد، وقد ذهبنا معه في عربة إلى فندق «هيرفورد آرْمز» حيث كانت هناك غرفة محجوزة لنا.

جلسنا لتناول كوب من الشاي فقال ليستراد: لقد طلبت عربة أجرة، فأنا أعرف طبيعتك النشطة وأعرف أنك لن ترتاح حتى تذهب إلى موقع الجريمة.

فأجابه هولمز قائلاً: هذا لطف شديد منك وفيه إطراء لي، ولكن الأمر يتوقف كلياً على الضغط الجوي.

جفل ليستراد ثم قال: لا أفهمك.

- إلامَ يشير البارومتر؟ إلى تسع وعشرين درجة كما أرى، وليست هناك رياح أو سحب في السماء، كما أن الأريكة أفضل بكثير ممّا هو مألوف في الفنادق الريفية الرديئة. ولذلك فلا يبدو محتمَلاً أن أستخدم العربة الليلة.

ضحك ليستراد بسماحة وقال: لا بد أنك توصلت إلى رأي نهائي بخصوص القضية من الصحف، فهي واضحة وضوح الشمس، وكلما تعمّق المرء في تفصيلاتها كلما ازدادت وضوحاً. لكن المرء لا يستطيع رفض طلب سيدة بالطبع، لا سيما إذا كانت مصرّة كهذه السيدة، فهي قد سمعَت بك وتريد أن تعرف رأيك، رغم أنني قلت لها مراراً إنك لن تجد شيئاً يمكن أن تعمله ولم أقم أنا به بالفعل. ولكن ما هذا؟ ها هي عربتها بالباب!

لم يكَد ينهي كلامه حتى اندفعت إلى الغرفة واحدة من أجمل الشابات اللاتي رأيتهن في حياتي، فقد لمعت عيناها البنفسجيتان وتوهّج خدّاها بحمرة

خفيفة، وفقدت تحفظّها الطبيعي تحت وطأة انفعالها وقلقها القهري. صاحت قائلة: آه، سيد هولمز!

ثم راحت تنقل بصرها من أحدنا إلى الآخر حتى ثبّتت بصرها على رفيقي بحَدْس المرأة السريع، وأكملت قائلة: كم أنا سعيدة بقدومك، وها قد جئت بعربتي لأخبرك بذلك، فأنا أعرف أن جيمس لم يرتكب تلك الجريمة، بل أنا متأكدة من أنه لم يفعلها أريدك أن تبدأ عملك وأنت تعرف ذلك، ولا تدَع الشك يساورك بخصوص هذا الأمر أبداً. إننا على علاقة وثيقة منذ أن كنا أطفالاً صغاراً، وأنا أعرف عيوبه أكثر من أي شخص آخر، ولكن به من رقة القلب ما يمنعه من إيذاء ذبابة، وكل من يعرفه حق المعرفة يعرف أن هذه التهمة لا أساس لها من الصحة.

قال شيرلوك هولمز: أرجو أن نتمكن من تبرئته يا آنسة تيرنر، ويمكنك أن تتأكدي من أنني سوف أبذل قصارى جهدي.

- ولكنك قرأت الأدلة، فهل كوّنت رأياً عن الأمر؟ ألا ترى أي منفذ، أي شيء يساعده؟ ألا تظن أنت نفسك أنه بريء؟

- أظن أن هذا محتمَل جداً.

صاحت قائلة: هذا هو ما أريده.

ثم ألقت برأسها إلى الخلف ونظرت إلى ليستراد بتحدٍّ قائلة: أتسمع؟ أنه يبعث الأمل في نفسي.

هزّ ليستراد كتفيه وقال: أخشى أن يكون زميلي قد تسرّع قليلاً في النتيجة التي توصل إليها.

- ولكنه على حق. نعم، أنا أعرف أنه على حق، فجيمس لم يقتل. أما بشأن شجاره مع أبيه فأنا متأكدة أن سبب رفضه الحديث عن الأمر مع القاضي هو أن هذا الأمر يتعلق بي.

سألها هولمز: كيف ذلك؟



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

- لن أستطيع إخفاء الحقيقة أكثر من ذلك؛ لقد كنت سبباً في العديد من النزاعات بين جيمس وأبيه، فقد كان السيد مكارثي يلحّ بشدة على زواجي بابنه، ولكن علاقة الودّ التي ربطتني بجيمس كانت دائماً كعلاقة الأخت بأخيها، كما أنه بالطبع ما يزال يافعاً وأمامه الكثير لينجزه، ولذلك... حسناً، ولذلك فهو لا يريد الإقدام على أمر كهذا في الوقت الحاضر. لهذا السبب تكرّرت المشاجرات بينهما، وأنا متأكدة أن هذه الأخيرة كانت واحدة منها.

سألها هولمز: وماذا عن والدك؟ هل كان مؤيّداً لهذا الزواج؟

- لا، بل كان معارضاً له، ولم يؤيّده إلا السيد مكارثي.

تضرّج وجهها الفتيّ البريء سريعاً بحمرة الخجل حين رمقها هولمز بإحدى نظراته الثاقبة المتفحّصة، ثم قال: شكراً لك على هذه المعلومات. هل يمكنني مقابلة والدك إذا قمت بزيارته غداً؟

- أخشى أن لا يسمح الطبيب بذلك.

- الطبيب؟

- نعم، ألا تعرف؟ إن أبي المسكين لم يكن

بصحة جيدة لسنوات خلت، ولكن ما حدث حطمه تماماً فلزم الفراش. ويقول الدكتور ويلوس إن حالته سيئة للغاية وإن جهازه العصبي قد دُمّر. لقد كان السيد مكارثي هو آخر شخص على قيد الحياة ممن عرف أبي من زمن بعيد في فكتوريا.

- في فكتوريا؟! هذا مهم.

- نعم، في المناجم.

- تماماً، مناجم الذهب، حيث كوّن السيد تيرنر ثروته كما فهمت.

- نعم، بالتأكيد.

- شكراً يا آنسة تيرنر، لقد ساعدتني بشكل كبير.

- أرجو أن تخبرني إن كانت قد توفّرت لديك غداً أية معلومات جديدة. لا شك أنك سوف تذهب إلى السجن لرؤية جيمس، فإذا فعلت ذلك يا سيد هولمز فأرجو أن تخبره أنني واثقة من براءته.

- سأفعل يا آنسة تيرنر.

- يجب أن أعود إلى المنزل الآن لأن أبي مريض للغاية، وهو يفتقدني بشدة حينما أتركه. إلى اللقاء،

وليساعدك الله في مهمتك.

أسرعَت بمغادرة الغرفة بمثل الاندفاع الذي دخلت به، ثم سمعنا صليل عجلات عربتها وهي تبتعد في الشارع. قال ليستراد بوقار بعد عدة دقائق: أنا أشعر بالخزي من تصرفاتك يا هولمز، فلماذا تُحيي عندها الأمل الذي لا مناص من إحباطه فيما بعد؟ رغم أنني لست رقيق القلب إلا أنني أعتبرها قسوة منك.

قال هولمز: أظن أنني أعرف كيف سأبرئ جيمس مكارثي. هل معك إذن بمقابلته في السجن؟

- نعم، ولكن لنا نحن الاثنين فقط.

- إذن سأعيد النظر في قراري بعدم الخروج. ألا يزال أمامنا ما يكفي من الوقت للذهاب بالقطار إلى هيرفورد ورؤية جيمس الليلة؟

- ما يكفي ويزيد.

- فلنقُم بذلك إذن. أخشى يا واطسون أنك سوف تشعر بالملل الشديد، ولكنني لن أغيب إلا ساعتين فقط.

رافقتهما إلى المحطة، وبعد ذلك تجوّلت في شوارع المدينة الصغيرة، وأخيراً عدت إلى الفندق حيث استلقيت على الأريكة وحاولت أن أشغل نفسي

بقراءة قصة بوليسية، ولكن الحبكة الدرامية الضعيفة للقصة كانت ضحلة جداً إذا ما قارنّاها باللغز المعقد الذي نبذل جهدنا لفك غموضه، ولذلك وجدتني أشرد بعقلي باستمرار لأفكر في الواقع وأترك العمل الأدبي، فرميت بالقصة عبر الغرفة واستسلمت كلياً للتفكير في أحداث اليوم.

فلو افترضنا أن قصة الشاب ذي الحظ التعس صحيحة تماماً فما هي تلك الكارثة الرهيبة الغريبة الغير المتوقَّعة التي يمكن أن تكون قد وقعت بين الوقت الذي ترك فيه الشاب والده وبين اللحظة التي أسرع فيها إلى الأرض الرحبة الخالية من الأشجار بعدما سمع صراخه؟ لا بد أنه كان أمراً فظيعاً ومهلكاً، فما



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

هو؟ ألا أستطيع بغريزتي الطبية أن أستشفّ شيئاً من طبيعة الجروح؟

قرعت الجرس وطلبت صحيفة المقاطعة الأسبوعية التي تحتوي على النصّ الحرفي للتحقيق، وقد قرر الجرّاح في شهادته المكتوبة أن الثلث الخلفي من عظم الجمجمة الأيسر والنصف الأيسر من عظمة مؤخرة العنق قد تهشّما بضربة قوية سببها سلاح غير حادّ.

حدّدت البقعة على رأسي فكان من الواضح أن مثل هذه الضربة لا بد أن تكون قد ضُربت من الخلف، وقد كان هذا الأمر في صالح المتّهَم إلى حد ما لأنه عندما شوهد وهو يتشاجر مع والده كان يقف أمام والده وجهاً لوجه، وإن كان لا يؤثر كثيراً لأن الأب ربما أدار ظهره قبل أن تقع الضربة. وبرغم ذلك فمن الممكن أن يكون الأمر يستحق لَفت نظر هولمز إليه.

بعد ذلك نصل إلى غرابة كلمة «رات» التي ذكرها القتيل قبل موته مباشرة، فما معنى ذلك؟ لا يمكن أن يكون الأمر هذياناً، فليس من المعتاد أن يهذي الشخص الذي يموت بسبب ضربة مفاجئة. لا، بل من الأرجح أنها كانت محاولة لشرح سبب موته. ولكن إلامَ تشير؟ أجهدت عقلي لأجد أي تفسير ممكن،

وبعد ذلك فكرت في واقعة القماش الرمادي الذي شاهده مكارثي الشاب، فلو كان هذا الأمر حقيقياً فلا بد أن القاتل قد أسقط قطعة من ملابسه -معطفه على الأرجح- في أثناء هربه، ولا بد أنه كان يملك من الجرأة ما يكفي لكي يعود ويحمله بعيداً في اللحظة التي ركع فيها الابن وأعطاه ظهره وهو على بُعد اثنتَي عشرة خطوة منه. يا لها من شبكة معقدة من الألغاز والأمور غير المحتمَلة! وبالرغم من أنني لم أتعجب من رأي ليستراد فإنني كنت أثق ببصيرة شيرلوك هولمز لدرجة تمنعني من فقدان الأمل طالما أن كل حقيقة جديدة تدعم -على ما يبدو- قناعته ببراءة مكارثي.

* * *

لم يعد هولمز إلا في وقت متأخر، وكان وحده لأن ليستراد يقيم في مسكن بالمدينة. وقد علّق هولمز بينما كان يجلس: ما زال البارومتر يشير إلى ارتفاع الضغط الجوي.

ثم أكمل قائلاً: من المهم أن لا تمطر السماء قبل أن نتمكن من فحص الأرض، ومن ناحية أخرى يجب على المرء أن يكون في أفضل أحواله وقمة حماسته للقيام بمثل هذا العمل اللطيف، ولذلك فلم أرغب في البدء به وأنا منهك من الرحلة الطويلة. لقد رأيت مكارثي الشاب.

- وبمَ أخبرك؟

- لا شيء.

- ألم يتمكن من توضيح أيّ شيء؟

- لا شيء على الإطلاق. لقد كنت أميل إلى التفكير في أنه يعرف الفاعل وأنه يتستّر عليه أو عليها، ولكنني مقتنع الآن أنه يشعر بالحيرة كأي شخص آخر. إنه ليس بالشاب الشديد الفطنة برغم أنه يَسُرّ الناظر بملاحة وجهه، وهو ليس شريراً على ما أظن.

علّقت قائلاً: لا يمكنني القول إنني أوافقه على ذوقه إن كان يعارض الزواج بشابة جذابة كالآنسة تيرنر.

- آه، ثمة قصة مؤلمة تتعلق بهذا الأمر؛ فهذا الشاب غارق في حبها بجنون، ولكنه ارتكب حماقة منذ بضعة أعوام عندما كان مجرد شاب صغير وقبل أن تتوثق معرفته بالآنسة تيرنر التي كانت بعيدة في مدرسة داخلية لمدة خمس سنوات، فقد وقع في حبائل نادلة في بريستول فتزوجها وسجّل زواجَه في مكتب تسجيل. لم يعرف أحدٌ شيئاً عن الأمر، ولكن بإمكانك أن تتصور كم كان من المزعج بالنسبة له أن يؤنب على عدم قيامه بشيء كان يتمنى التضحية بأي شيء في سبيل إتمامه، غير أنه يعرف مدى استحالته. وكانت نوبة من نوبات

الجنون المطلق هي التي دفعته إلى رفع يديه في الهواء في وجه والده عندما كان يحثّه بعنف في آخر لقاء بينهما على طلب الزواج بالآنسة تيرنر، كما أنه -من جهة أخرى- لا يملك أي مصدر لإعالة نفسه، وأبوه رجل غليظ القلب حسب رأي الجميع، وكان سيتخلى عنه كلياً لو عرف الحقيقة. وقد قضى الأيام الثلاثة الأخيرة مع زوجته النادلة في بريستول ولم يكن أبوه يعلم بمكانه. انتبه لهذه النقطة فهي ذات أهمية. وقد تسببت هذه الكارثة في بعض الخير على أية حال، فزوجته النادلة تلك عرفت من الصحف أنه واقع في مشكلة خطيرة وأنه قد يُشنَق، فتخلّت عنه تماماً وأرسلت إليه تخبره بأنها سوف تتزوج رجلاً يعمل في ترسانة برمودا البحرية، وبذلك فلن يبقى أي رابط شرعي بينهما. وأظن أن في هذه الأخبار عزاء لمكارثي الشاب في محنته.

- ولكن إذا كان هو بريئاً فمَن الذي فعلها؟

- نعم، مَن؟ أريد أن ألفت انتباهك إلى نقطتين؛ الأولى أن القتيل كان لديه موعد مع شخص ما عند البحيرة، ولا يمكن أن يكون هذا الشخص هو ابنه لأن ابنه كان مسافراً ولم يكن يعرف بموعد عودته. أما النقطة الثانية فهي أن القتيل قد سُمع وهو يصيح بصيحة «كوي» قبل أن يعلم بعودة ابنه. القضية تعتمد

على هاتين النقطتين الحاسمتين. حسناً، دعنا الآن نتحدث في الشعر والأدب لو سمحت، ولنترك كل التفصيلات الصغيرة إلى الغد.

* * *

قال ليستراد: توجد أخبار خطيرة هذا الصباح، يقال إن السيد تيرنر صاحب الأرض مريض جداً ولا أمل في شفائه.

سأل هولمز: هل هو رجل عجوز؟

- في نحو الستين من عمره، ولكن بنيته ضَعُفت بسبب معيشته في الخارج، كما أنه يعاني من تدهور في صحته منذ بعض الوقت، وقد كان لهذه القضية أثر سيئ جداً عليه، فقد كان صديقاً قديماً لمكارثي، بل يمكنني القول إنه قد أحسن إليه كثيراً، حيث علمت مؤخراً أنه قد ترك مزرعة هاثرلي لمكارثي ليستغلها دون أن يدفع إيجاراً.

فقال هولمز: آه! هذا الأمر مثير للاهتمام.

- نعم، وقد ساعده بطرق أخرى عديدة، وكل الناس في المنطقة يتحدثون عن كرمه معه.

- أحقاً؟ ألا ترى ممّا يدعو إلى الاستغراب أن يتحدث هذا المدعوّ مكارثي بتلك الطريقة الواثقة

عن تزويج ابنه بابنة تيرنر (التي يُفترَض أنها وريثة للممتلكات) كما لو كان الأمر يتوقف فقط على عرض الزواج، وكأن شيئاً لن يعوق هذا المشروع بعد ذلك؟ برغم أنه لا يملك الكثير كما يبدو، بالإضافة إلى ما لتيرنر من أفضال عليه! ويزداد الأمر غرابة حين نعرف أن تيرنر نفسه كان معارضاً للفكرة، وقد أخبرتنا الابنة بذلك. ألا تستنتج شيئاً من هذا الأمر؟

قال ليستراد وهو يغمز لي بعينه: ما لنا والاستنتاج والاستنباط يا هولمز؟ إنني أجد صعوبة في تدبّر الحقائق، فما بالك بالتحليق خلف الأوهام والنظريات؟

فقال هولمز برزانة: إنك على حق، فأنت بالفعل تجد صعوبة شديدة في فهم الحقائق.

قال ليستراد ببعض الانفعال: ولكنني تمكنت -على أية حال- من فهم حقيقة واحدة يبدو أنك تجد صعوبة في إدراكها؛ وهي أن مكارثي الأب قد لقي حتفه على يد مكارثي الابن، وأن كل النظريات التي تشير إلى غير ذلك مجرّد هراء.

فقال هولمز: حسناً، وأنا متأكد جداً من أن مزرعة هاثرلي هي تلك التي على يسارنا.

- أجل، إنها هي.

كان مبنى المزرعة المكوَّن من طابقين مترامي الأطراف ولكن له شكلاً مريحاً، وقد اكتست جدرانه الرمادية ببقع صفراء ضخمة من الطحالب، وإن دلّت الستائر المغلقة والمداخن التي لا يخرج منها الدخان على النكبة التي حلّت بالمنزل وكأنه ما زال يرزح تحت وطأة هذه الكارثة.

وقفنا بالباب بينما قامت الخادمة -بناء على طلب هولمز- بعرض الجزمة التي كان سيدها ينتعلها



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

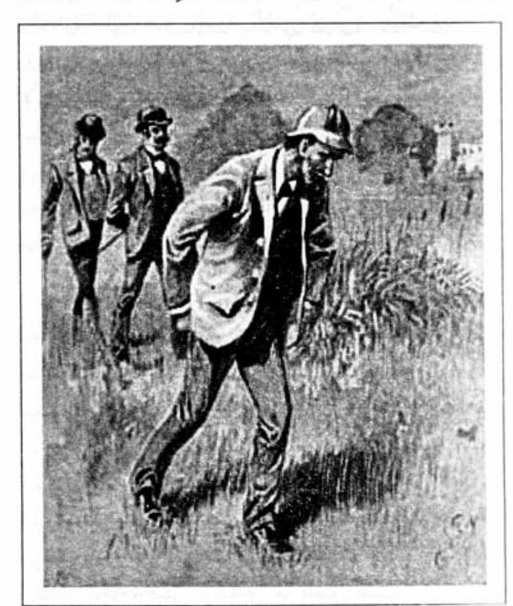
وقت موته، بالإضافة إلى زوج من الأحذية يملكه الابن، وإن لم يكن هو نفس الزوج الذي كان يرتديه وقت الحادثة. وبعد أن قام هولمز بقياس الزوجين بعناية شديدة من سبع أو ثماني نقاط مختلفة رغب في أن يذهب إلى الساحة، وهناك مشينا جميعاً على طريق ملتوٍ يقود إلى بحيرة بوسكومب.

كان شيرلوك هولمز يتحول تحولاً شديداً حين يتعقب مثل هذا الأثر حتى ليفشل كل من كان يعرف المفكر الهادئ وعالم المنطق المقيم بشارع بيكر في التعرف عليه! فقد توهّج وجهه واكتسى بالغموض، كما برقت عيناه وتغضّن حاجباه فأصبحا كخطين أسودين متصلبين، وانحنى وجهه إلى أسفل وتقوّست كتفاه، كما زمّ شفتيه ونفرت عروق عنقه الطويل القوي كحبل مشدود! وقد ركّز كل تفكيره في الموضوع الذي يبحثه حتى إنه لم يكنْ يلتفت إلى أي ملاحظة أو سؤال أو كان يردّ مزمجراً بنفاد صبر في أحسن الحالات.

مضى هولمز في طريقه الذي يمر عبر المروج بخفّة وصمت، ثم مشى عبر الغابة في الطريق المؤدي إلى بحيرة بوسكومب. كانت الأرض رطبة موحلة كسائر أراضي المنطقة، وعليها آثار لأقدام كثيرة على الممرّ ووسط العشب القصير الذي يحدّه من الجانبين،

وقد كان هولمز يسرع أحياناً ويتوقف تماماً في أحيان أخرى، كما أنه انعطف مرة ليمشي في فرع صغير للطريق عبر المروج.

مشيت أنا وليستراد وراءه، وكان المحقق يمشي وهو مستخفّ بما يحدث وغير مبالٍ به، بينما راقبت



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ — Josef Friedrich 1906

أنا صديقي باهتمام مصدره اقتناعي بأن كل خطوة يقوم بها يكون لها هدف محدد.

تقع بحيرة بوسكومب (وهي صفحة صغيرة من الماء يحيط بها القصب الذي يمتد في طوق عرضه خمسون متراً) على الحد الفاصل بين مزرعة هاثرلي والحديقة الخاصة بالسيد الغني تيرنر، حيث نستطيع رؤية الأبراج الحمراء البارزة التي تميز مسكن مالك الأرض الثري من فوق الغابات التي تحيط بالبحيرة من الناحية الأبعد، أما من ناحية هاثرلي فالغابة المحيطة بالبحيرة تنمو بكثافة كبيرة، وهناك حزام ضيق من العشب المبلل بالماء يمتد بطول بضعة عشر متراً بين حافة الأشجار والقصب الذي يطوّق البحيرة.

دلنا ليستراد على الموقع الدقيق الذي وجدوا فيه الجثة، وكانت الأرض حقاً رطبة جداً حتى إنني استطعت رؤية الآثار التي تخلفت عن سقوط الرجل المضروب بوضوح. أما بالنسبة إلى هولمز فاستطعت أن أرى من عينيه المحملقتين ومن اللهفة المرتسمة على وجهه أن هناك العديد من الأشياء الأخرى التي يمكن معرفتها من العشب المتكسر، وقد أخذ هولمز يدور في المكان بسرعة ككلب يقتفي أثراً، ثم استدار تجاه رفيقي وسأله: ما الذي كنت تبحث عنه في البحيرة؟

- لقد مشطتها بحثاً عن أي سلاح أو أي دليل آخر قد يكون فيها، ولكن كيف بالله...؟

- لا، لا وقت لديّ للشرح... إن أثر قدمك اليسرى التي بها التواء إلى الداخل يملأ المكان حتى إن الخلد يستطيع تتبعه، ثم ها هو الأثر يتوارى بين القصب. آه، كم كان الأمر سيصبح سهلاً لو أنني وصلت إلى هذه البقعة قبل أن يصل الجميع ويجتاحوا المكان كقطيع من الجواميس! ها هو المكان الذي جاءت منه المجموعة التي كانت ترافق حارس المنتجع، وقد غطّت آثارهم على كل الآثار الموجودة لمسافة تتراوح بين مترين وثلاثة أمتار حول الجثة... ولكن ها هي ثلاثة مسارات منفصلة لنفس الأثر.

ثم سحب عدسته وانبطح على الأرض فوق معطفه المضاد للبلل ليحظى برؤية أفضل، وبدا أنه يتحدث إلى نفسه وليس إلينا. قال: ها هي أقدام مكارثي الشاب، وقد مشى مرتين وجرى بسرعة مرة واحدة، ولهذا فبالرغم من أن نعل الحذاء قد ترك أثراً عميقاً فإن الكعب يكاد أن لا يظهر، وهذا يدعم روايته، فقد جرى عندما رأى أباه على الأرض، وها هي آثار أقدام الأب حين كان يمشي ذهاباً وإياباً بخطوات منتظمة وثابتة. ما هذا إذن؟ إنه أثر عقب

البندقية عندما وضعها الشاب بجانبه وهو يقف مستمعاً لأبيه. وهذا؟ ماذا لدينا هنا؟! إنها آثار لشخص يمشي على أطراف أصابعه ومقدمة حذائه مربعة الشكل! يا له من حذاء غير عادي! إن الآثار تأتي وتذهب ثم تعود ثانية، وقد عادت لأخذ المعطف بالطبع. والآن لنرَ من أين جاءت.

سار هولمز بخطوات منتظمة ثابتة كان يفقد فيها الأثر في بعض الأحيان ثم يعود ليجده في أحيان أخرى، حتى دخلنا ضمن حدود الغابة، وقد تتبع هولمز الأثر حتى الناحية الأبعد لشجرة زان ضخمة كانت هي أضخم الأشجار في المنطقة، ثم اضطجع مرة أخرى على وجهه وهو يطلق صيحة ارتياح خافتة.



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

وقد بقي على وضعه لمدة طويلة وأخذ يقلّب أوراق الشجر والعصيّ الجافة ويجمع في مظروف ما بدا لي أنه مجرد غبار. ولم يكتفِ بفحص الأرض بدقة بعدسته بل قام بفحص كل شيء، حتى قشرة الشجرة إلى أقصى ارتفاع استطاع الوصول إليه، كما وجد حجراً خشناً بين الطحالب ففحصه واحتفظ به، وبعد ذلك تتبع الأثر على أحد الطرقات المارة عبر الغابة حتى وصل إلى الطريق العام فضاعت كل الآثار.

وأخيراً قال وقد عاد إلى طبيعته: إنها قضية مثيرة للاهتمام، وأظن أن هذا المنزل الرمادي اللون على الجانب الأيمن هو المنتجع. سوف أدخل وأتحدث مع موران، وربما كتبت رسالة صغيرة، وعندما أنتهي من ذلك سيكون من الممكن أن نعود بالعربة لنتناول الغداء. يمكنكما الآن التوجه إلى عربة الأجرة وسوف أكون معكما بعد لحظات.

مضت عشر دقائق قبل أن نستعيد عربتنا ونعود إلى روس، وكان هولمز ما زال يحمل معه الحجر الذي التقطه من الغابة، وقد علّق قائلاً: قد يثير هذا اهتمامك يا ليستراد، فهو ما ارتُكبت به الجريمة.

- لا أرى عليه علامات تدل على ذلك.

- لا توجد أية علامات.

- فكيف عرفت إذن؟

- لقد كان العشب نامياً تحته، فهو إذن لم يوضع هناك إلا منذ بضعة أيام، كما لا يوجد أثر يدل على المكان الذي أُخذ منه، بالإضافة إلى أنه يتطابق مع الجروح فلا يوجد أي سلاح آخر.

- وماذا عن القاتل؟

- إنه رجل طويل القامة أعسر ورِجله اليمنى عرجاء، وهو يرتدي حذاء صيد له نعل سميك ومعطفاً رمادياً، كما أنه يدخّن لفافات هندية باستخدام المبسم، بالإضافة إلى أنه يحمل في جيبه مطواة حادة، وهناك علامات عديدة أخرى إلا أن هذه قد تكون كافية لمساعدتنا في بحثنا.

ضحك ليستراد وقال: أخشى أنني لا أزال متشككاً، فكل هذه النظريات جيدة جداً، إلا أننا يجب أن نتعامل مع المحلَّفين الإنكليز الذين لا يقتنعون إلا بالدليل القاطع.

- سوف نرى، فلتعمل أنت حسب طريقتك ولأعمل أنا وفق طريقتي. سأكون مشغولاً بعد ظهر هذا اليوم وسوف أعود إلى لندن على الأرجح في قطار المساء.

- وتترك قضيتك دون أن تنهيها؟

- لا، بل سأنهيها.

- وماذا عن اللغز؟

- لقد تمّ حله.

- ومَن المجرم إذن؟

- إنه الرجل الذي وصفته لك.

- ولكن مَن يكون؟

- لن يكون من الصعب اكتشاف ذلك بالتأكيد، فهذه المنطقة ليست مزدحمة بالسكان.

هزّ ليستراد كتفيه وقال: إنني رجل عمليّ، ولا يمكنني حقاً أن أتعهد بتفتيش البلد بحثاً عن رجل أعسر ذي ساق عرجاء، وإلا أصبحت أضحوكة سكتلنديارد!

فقال هولمز بهدوء: حسناً، لقد أعطيتك الفرصة. ها هو مسكنك، وداعاً. سأرسل لك رسالة قصيرة قبل أن أرحل.

ذهبنا إلى فندقنا بعد أن تركنا ليستراد عند مسكنه لنجد الغداء جاهزاً على المائدة، وكان هولمز صامتاً

وغارقاً في أفكاره وعلى وجهه تعبير ألم وكأنه شخص وُضع في موقف محيّر. وأخيراً قال عندما رُفعت المائدة: انظر هنا يا واطسون، اجلس في هذا الكرسي ودعني أضجرك ببعض المواعظ، فأنا لا أعرف ما عليّ فعله وسأقدر لك نصيحتك.

- أنا منصت إليك بكل انتباهي.

- حسناً، عند دراسة هذه القضية لفتت انتباهَنا نحن الاثنين على الفور نقطتان تتعلقان برواية مكارثي الشاب، وإن تركا أثراً في نفسي على أنهما دليل في صالح الشاب ونظرت أنت إليهما على أنهما دليل ضده. كانت أولى النقاط هي حقيقة أن والده قد أطلق -طبقاً لروايته- صيحة «كوي» قبل أن يراه، أما النقطة الثانية فهي إشارة الميت قبل وفاته مباشرة إلى كلمة «رات»، وأنت تعرف بالطبع أنه قد غمغم بعدة كلمات ولكن ابنه لم يستطع أن يسمع غير هذه الكلمة. وهكذا يجب أن يبدأ بحثنا انطلاقاً من هذه النقطة المزدوجة، وسوف نبدأ بافتراض أن ما قاله الفتى هو الحقيقة المجردة.

- وماذا عن صيحة «كوي» إذن؟

- حسناً، من الواضح أنها لم تكن موجّهة إلى الابن، فالابن كان -على حد علمه وقتها- في

بريستول، وكان سماع الابن للصيحة محضَ مصادفة، فقد كانت الصيحة قد أُطلقت لجذب انتباه الشخص، أياً كان، والذي كان القتيل على موعد معه. إن صيحة «كوي» صيحة أسترالية مميزة وهي تُستخدَم بين الأستراليين، وهكذا فهناك فرضية قوية بأن الشخص الذي كان مكارثي ينتظر مقابلته عند بحيرة بوسكومب هو شخص كان يقيم في أستراليا.

- وماذا عن كلمة «رات» إذن؟

أخرج شيرلوك هولمز ورقة مطوية من جيبه وبسطها على الطاولة ثم قال: هذه خريطة لمستعمرة فكتوريا، وقد أبرقت إلى بريستول أمس لأطلبها.

ثم وضع يده فوق جزء من الخريطة وقال: ماذا تقرأ؟

فقرأت: أرات.

ثم رفع يده وقال: والآن؟

- أرات؟!

- تماماً، لقد كانت هذه هي الكلمة التي نطق بها الرجل، والتي لم يسمع منها الابن إلا جزءاً منها، فقد كان يحاول نطق اسم قاتله وكذلك اسم «أرات».

صِحت قائلاً: رائع!

- إنه أمر واضح، والآن كما ترى، لقد ضيّقت نطاق البحث بشكل ملحوظ. أما حيازة القاتل للرداء الرمادي -إذا سلمنا بأن رواية الشاب صحيحة- فقد كانت نقطة ثالثة مؤكّدة تجلو الغموض التام وتوصلنا إلى تخيّل محدد لشخص أسترالي من أرات يرتدي معطفاً رمادياً.

- بالتأكيد.

- وهو أيضاً شخص له منزل بالمنطقة، حيث إن البحيرة لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق المزرعة حيث لا يستطيع الأغراب أن يتجولوا بحرية.

- تماماً.

- نصل الآن إلى الرحلة التي قمنا بها اليوم، فمن خلال فحصي للأرض عرفت بعض التفصيلات التافهة التي زوّدت بها ليستراد الغبي بالإضافة إلى الصفات الشخصية للمجرم.

- ولكن كيف توصلت إلى هذه الأمور؟

- أنت تعرف منهجي في التحليل، وهو يقوم على ملاحظة الأمور التافهة.

- أعرف أنك قد تستطيع تقدير طوله بشكل تقريبي عن طريق طول خطوته، وحذاؤه أيضاً يمكن معرفته عن طريق أثره على الأرض.

- أجل، لقد كان حذاء غريباً.

- ولكن كيف عرفت أنه أعرج؟

- كان أثر القدم اليمنى دائماً أقلّ وضوحاً من القدم اليسرى لأنه يضع ثقلاً أقل عليها، فلماذا؟ لأنه يعرج.

- وكيف عرفت أنه أعسر؟

- لقد لفتت طبيعة جروح القتيل -كما سجّلها الجرّاح في التحقيق- نظرك؛ فبرغم أن الضربة قد وُجِّهت من الخلف مباشرة فإنها وقعت على الجانب الأيسر، فكيف يمكن لذلك أن يحدث ما لم يكن أعسر؟ لقد وقف خلف الشجرة خلال المقابلة التي دارت بين الأب وابنه، حتى إنه دخّن هناك، وقد وجدت رماد لفائفه ومكّنتني معرفتي الخاصة برماد التبغ من الحكم بأنه نوع هندي، وحين وجدت الرماد نظرت حولي فوجدت العَقب حيث رماه وسط الحشائش. لقد كان سيغاراً هندياً من النوع الذي يقومون بلفّه في روتردام.

- وماذا عن المبسم؟

- لاحظت أن العقب لم يكن في فمه، وهكذا فلا بدّ أنه استخدم مبسماً، كما كان رأس السيغار مقطوعاً وليس مقضوماً، ولكن القطع لم يكن مستوياً، وهكذا استنتجت أنها مطواة غير حادة.

قلت: حسناً، لقد أحكمت الطوق حول هذا الرجل يا هولمز بحيث لن يستطيع الفرار، كما أنك أنقذت بريئاً من حبل المشنقة تماماً كما لو كنت قد قطعت الحبل الذي كان سيُشنَق به. أرى الآن الاتجاه الذي تشير إليه كل تلك النقاط، فالمجرم هو...

في تلك اللحظة صاح خادم الفندق وهو يفتح باب غرفة جلوسنا ويرشد زائراً إلى الداخل: السيد جون تيرنر.

كان شكل الرجل الذي دخل غريباً ومَهيباً في الوقت نفسه، فقد أعطى بطء خطواته العرجاء وانحناء كتفيه إيحاءً بوهنه وعجزه، في حين دلت أطرافه الضخمة وملامح وجهه القاسية الخشنة وخطوطه العميقة على قوة غير عادية في الجسم والشخصية. أما لحيته المشعثة وشعره الأشيَب وحاجباه الكثيفان فقد اتحدت معاً لتضفي على مظهره وقاراً وقوة، وإن بدا وجهه شاحباً شحوب الموتى بينما تلوّنت شفتاه

وزاويتا أنفه بلون أزرق خفيف، ومن نظرة واحدة بدا لي واضحاً أنه فريسة لمرض مزمن مميت.

قال هولمز بلطف: أرجو أن تجلس على الأريكة. هل استلمت رسالتي؟



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

- نعم، وقد قلتَ فيها إنك ترغب في مقابلتي هنا تجنباً للفضيحة.

- لقد فكرت في أن الناس قد يثرثرون إذا ذهبتُ إلى القصر.

نظر الرجل إلى رفيقي واليأس يطلّ من عينيه المرهَقتين وكأنه يعرف الإجابة قبل أن يسمعها: ولماذا أردت رؤيتي؟

قال هولمز: الحقيقة. نعم، إنها الحقيقة، فأنا أعرف كل شيء عمّا حدث لمكارثي.

دفن العجوز وجهه بين كفيه وصاح قائلاً: فليساعدني الله إذن! ولكنني لم أكن لأدع الشاب يتعرض لأي أذى؛ أقسم لك أنني كنت سأعترف لو حكموا عليه في جلسة المحكمة.

قال هولمز بجِدّ: يسعدني سماع ذلك منك.

- كان من الممكن أن أعترف الآن لولا إشفاقي على ابنتي العزيزة، فهذا الأمر قد يحطم قلبها، وسوف يتمزق فؤادها حين تعلم بالقبض عليّ.

- قد لا يصل الأمر إلى هذا الحد.

- ماذا؟

- أنا لست ضابطاً رسمياً، وابنتك هي التي طلبت حضوري إلى هنا، وهكذا فأنا أعمل لصالحها، ومع ذلك يجب أن يخرج مكارثي الشاب.

قال تيرنر العجوز: إنني على وشك الموت، فقد أُصبت بمرض عُضال منذ أعوام وطبيبي يقول إنني قد لا أعيش شهراً آخر، ولكنني الموت على فراشي أفضل من الموت في السجن بالطبع.

وقف هولمز واتجه إلى الطاولة وقد حمل قلمه بيده ووضع أمامه رزمة من الأوراق، وقال: أخبرنا فقط بالحقيقة، وسوف أقوم بتدوين الوقائع لتوقّعها كما سيشهد واطسون -الموجود هنا- عليها؛ لأتمكن من تقديم اعترافك كملاذ أخير لإنقاذ الشاب مكارثي، وأعدك أن لا أستخدمها إلا عند الضرورة القصوى.

قال العجوز: هذا جيّد، فمن المشكوك فيه أن أعيش حتى موعد جلسة المحاكمة، ولهذا فالأمر لن يضيرني، ولكنني أشفق على ابنتي من الصدمة. والآن سوف أوضح الأمر لكما، وبرغم أنه يجري منذ وقت طويل فإنني لن أستغرق وقتاً طويلاً في حكايته.

إنكما لا تعرفان القتيل مكارثي، لكنني أؤكد لكما أنه كان الشيطان بعينه! أدعو الله أن يحميكما من السقوط بين براثن رجل مثله. لقد كنت تحت سيطرته

طوال السنوات العشرين الماضية، فدمّر حياتي. سوف أخبركما أولاً كيف وقعت في قبضته؛ بدأ الأمر في أوائل الستينيات في المناجم، وكنت وقتها شاباً غريراً متهوراً سريع الانفعال مستعداً لعمل أي شيء، فصاحبت رفاق سوء وأدمنت الخمر، وحين لم أوفَّق في العثور على الذهب في المناجم قصدت الأدغال... وباختصار صرت قاطع طريق كما تقولون هنا.

كنا ستة أشخاص نعيش حياة همجية ونسطو على محطة من حين لآخر أو ننهب العربات وهي في طريقها إلى المناجم، وكان الاسم الذي اتخذته لنفسي هو «جاك الأسود، من أرات»، وما زالوا في المستعمَرة يتذكرون جماعتنا باسم «عصابة أرات». وفي أحد الأيام سارت قافلة عربات محمَّلة بالذهب في طريقها من أرات إلى ملبورن، فتربصنا بها وهاجمناها، وكان هناك ستة حراس في مواجهة ستة منا، وهكذا فقد كانت معركة صعبة، ولكننا قمنا بإسقاط أربعة منهم في الجولة الأولى كما قُتل ثلاثة من رجالنا قبل أن نستولي على الغنيمة. وقد وضعت فوّهة مسدسي في رأس سائق إحدى العربات الذي كان هو نفسه هذا المدعو مكارثي، وليتني قتلته عندها، ولكنني عفوت عنه بالرغم من أنني رأيت عينيه الصغيرتين الماكرتين وهما تحدقان إلى وجهي كما لو كان يريد أن يتذكر معالمه.

هربنا بعد ذلك بالذهب وأصبحنا رجالاً أغنياء وجئنا إلى إنكلترا دون أن يشكّ فينا أحد، ثم تركت أصحابي القدامى وقررت الاستقرار وبناء حياة هادئة محترمة، فاشتريت هذه العزبة التي تصادف عرضها للبيع وقررت أن أستخدم بعض مالي في القيام بالقليل من أعمال الخير للتعويض عن الطريقة التي كسبته بها، كما تزوجت أيضاً، ورغم أن زوجتي ماتت شابة إلا أنها تركت لي عزيزتي الصغيرة آليس. حتى عندما كانت رضيعة بدا وكأن يدها الصغيرة تقودني باتجاه الطريق القويم كما لم يفعل شيء آخر من قبل. وباختصار قلبت صفحة جديدة وبذلت جهدي للتعويض عن الماضي، وكان كل شيء يسير في طريقه الصحيح عندما أحكم مكارثي قبضته عليّ.

كنت قد ذهبت إلى المدينة لمتابعة بعض الاستثمارات فقابلته في شارع ريجنت، ولم يكن يرتدي إلا معطفاً مهلهلاً وحذاء بالياً، وقد لمس ذراعي وقال: ها نحن نتقابل يا جاك، وسوف نكون لك بمثابة العائلة. نحن اثنان، أنا وابني، ويمكنك أن تتكفل بنا... أما إن لم تفعل فلا ضرر، فإنكلترا هي بلد الالتزام بالقانون ورجال الشرطة في كل مكان.

حسناً، لم يكن في يدي ما أصنعه، فانتقلا إلى هذه المنطقة وعاشا في أفضل مزارعي دون دفع أي

إيجار منذ ذلك الوقت، ولم أشعر بالراحة من وقتها ولا بالسلام أو النسيان، فحيثما كنت أذهب كنت أجد بالقرب مني وجهه الماكر المستهزئ. ثم ازداد الأمر سوءاً عندما كبرت آليس، فقد أدرك سريعاً أن خوفي من اكتشافها الحقيقة كان أكبر من خوفي من الشرطة، وهكذا فقد حصل على كل ما أراده من أرض ومال ومنازل دون تردد، حتى طلب أخيراً شيئاً لم أكن قادراً على تقديمه له... لقد طلب آليس!

كان ابنه قد كبر، وكذلك ابنتي. ولمعرفته بضعف صحتي بدا له أن استيلاء ابنه على كل الممتلكات سيكون ضربة حظ موفقة، ولكنني تصديت بصرامة لهذا الأمر، فلم أكن لأوافق على اختلاط سلالته الملعونة بسلالتي، ليس لأنني أحمل أية ضغينة ضدّ الفتى ولكن لأنه يحمل دمه، وكان في هذا ما يكفي، فصمّمت على رأيي. وهددني مكارثي فتحديته أن يفعل أسوأ ما يستطيع، وكان من المفروض أن نتقابل عند البحيرة في مكان محايد بين منزلي ومنزله كي نناقش الأمر.

عندما ذهبت إلى موقع اللقاء وجدته يتحدث إلى ابنه، فانتظرت خلف شجرة ودخّنت سيغاراً حتى يصبح وحده، ثم سمعت كلامه فتغلّب عليّ كل الشر والعنف الذي كان عندي في وقت من الأوقات، فقد

كان يحثّ ابنه على الزواج بابنتي دون أن يهتمّ برأيها في الأمر وكأنها غانية من الشارع! وحينما فكرت بأنني سأغدو أنا وكل ما هو عزيز عليّ تحت رحمة رجل كهذا دفعني هذا التفكير إلى الجنون. أكان من الممكن



Sydney Paget 1891 — رسم سدني باجيت ١٨٩١

أن لا أكسر القيد؟ أنا رجل يائس يُحتضر، وإن كنت صافي العقل قوي الأوصال. لقد عرفت أن مصيري محتوم، ولكن ألا يسعني إنقاذ ابنتي وذكراي؟ بل يمكنني إنقاذ كل منهما لو قمت بإخراس ذلك الفم القذر إلى الأبد.

لقد ارتكبت الجريمة يا سيد هولمز ولست نادماً على ذلك، فبالرغم من أنني أذنبت كثيراً إلا أنني عشت حياة كلها عذاب تكفيراً عن ذنوبي، أما أن تقع ابنتي في نفس الشرَك الذي عانيت منه فقد كان الأمر أكبر مما أستطيع احتماله. فضربته دون أيّ ندم كما لو كان وحشاً سامّاً قذراً، إلا أن صيحته دفعت ابنه إلى العودة فاختبأت بين الأشجار، ولكنني اضطررت إلى العودة لكي أستعيد معطفي الذي سقط في أثناء فراري. هذه هي القصة الحقيقية لكل ما حدث أيها السيدان.

قال هولمز بينما كان العجوز يوقّع على الشهادة التي كتبها: حسناً، ليس لي أن أحكم عليك، وأرجو أن لا أضطر إلى القيام بذلك.

- أرجو ذلك يا سيدي. وماذا تنوي أن تفعل؟

- لا شيء نظراً لوضعك الصحي، ولكن لا بد أنك تدرك أنت نفسك أنك سوف تقف قريباً أمام

محكمة أعلى لتحاسَب على أفعالك. سوف أحتفظ باعترافك، وإذا ما جُرِّم مكارثي فسوف أكون مجبَراً على استخدامه، أما إذا حُكم عليه بالبراءة فلن تقع عليه عين مخلوق، وسيكون سرّك في أمان معنا سواء أكنت حياً أم ميتاً.

قال العجوز بوقار: وداعاً إذن. في آخر ساعات حياتكما -حين يحين أجلكما- ستشعران بالراحة عند التفكير في الأمان الذي قدمتماه إليّ.



Sydney Paget 1891

رسم سدني باجيت ١٨٩١

ثم خرج من الغرفة وهو يمشي ببطء وبصعوبة وجسمه العملاق يهتزّ كله ويتمايل.

* * *

صدر الحكم ببراءة جيمس مكارثي بناء على عدد من الاعتراضات التي كتبها هولمز وقدّمها إلى محامي الدفاع، وقد عاش تيرنر العجوز سبعة شهور بعد مقابلتنا، ولكنه ميت الآن، وثمة احتمال كبير في أن يكون الابن والابنة قد تزوّجا وعاشا بعد ذلك في سعادة معاً دون أن يعرفا بالسحابة السوداء التي خيّمت على ماضيهما.

* * *

-تمت-

صدر من هذه المجموعة

مغامرات شيرلوك هولمز

(١) فضيحة في بوهيميا

(٢) قضية هوية

(٣) عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر

(٤) لغز وادي بوسكومب

(٥) بذور البرتقال الخمس

(٦) ذو الشّفة الملتوية

(٧) مغامرة الجوهرة الزرقاء

(٨) لغز العصابة الرقطاء

(٩) مغامرة إبهام المهندس

(١٠) مغامرة النبيل الأعزب

(١١) مغامرة تاج الزمرّد

(١٢) منزل الأشجار النحاسية